نلتقي في لبنان ، وقد نلتقي في لندن . كان من حسن الحظ ان عملي يقتضي مني كل سنة تقريبا سفرة الى لندن تدوم خمسة اسابيع أو ستة . وحال وصولي اليها ، يأتي توفيق من كمبردج ، ويبقى في المدينة الكبيرة بقدر ما يستطيع التغيب عن عمله ، ذاهبا الى كمبردج عائدا الى لندن ، طيلة اقامتي هناك . كنا نقضي الامسي الطويلة في حديث لا ينقطع ، في مقاهي المدينة ومطاعمها . وكان لنا بالطبع اماكننا المحببة الخاصة ، غير ان احب مطعم الينا كان مطعم « البوليفار » في شارع «وغمور» ، القريب من « اكسفورد ستريت » .

كنت احثه على الكتابة ، ويحثني عليها وان كان هو يعتقد انني لست بحاجة الى حث . اما هو فكان بحاجة الى الدفع مستمرة . (كنت ، حتى في لندن، اذ خلوت الى نفسي ، اكتب ، فيكاد هو لا يصدق ذلك !) وهكذا كان ان استخلصت منه وعدا بكتابة دراسة عن اقاصيصي التي أزمعت اخراجها مجموعة في كتاب عام ١٩٥٦ . وقد كان قبل ذلك قد كتب دراسة نقدية لشعر عمر ابي ريشة ، نشرت في مجلة « الآداب » ، جعلتني أجزم انها وقتئذ خير ما قرات من نقد في العربية في موضوع معاصر . ولما صدر كتابي « عرق وقصص اخرى » وقرات مقدمته لاول مرة — اذ انني سلمته القصص ، وطلبت اليه ان يكتب ما يشاء وينشره كمقدمة قبل ان يريني اياه — طفرت الدموع الى عيني مرات عديدة . « عبر الارض البوار » كانت شهادة مسهبة معقدة، عميقة الابعاد ، نافذة الرؤيا ، لا على محاولتي القصصية فحسب ، بل على محاولة توفيق نفسه في فكره وفنه . وانا ما زلت اعتقد ، بعد خمسة عشر عاما من نشرها ، انها ربما كانت ابرع دراسة نقدية ظهرت في جيلنا الادبي . وقد اعترفت له انني بعد ذلك ادركت ان من السخف ان اتصدى لعملية نقدية الا اذا استطعت ان اجاري ما كتب . كانت امتحانا لي ، وحافزا ، لم اعرف مظلمها حتى اليوم. ورغم انه كان يكتب الشعر — ولكن بقلة غريبة — جعلت اطالبه بكتابة نقد جديد . كنت اطالبه ، فيعد ، ويختار ، ويخطط ، ثم يرفع يديه يائسا قائلا انه « عاجز » عن التنفيذ .

بيد ان الشعر لم يكن يفارقه ، رغم حرصه على الا يطلع احدا عليه قبل ان ينضج ويختمر على هواه . فطيلة السنوات الواقعة بين ١٩٥٤ و١٩٦٠ كان يكتب القصائد ، ولكن دائما بالم . كان يتحدث عن الالم الذي يسبق الكتابة ، والذي يرافقها ، والذي يليها . لان القصيدة لم تكن يوما لديه الهية، او ازجاء لساعة فراغ . كانت القصيدة لديه تفجيرا عاتيا لتجربة عاتية ، وكان عليه ان يكون في كل سطر منها صاحب صورة جديدة ، يحاسب عليها نفسه حسابا واعيا ، صارما . وكان في النصف الثاني من هذه الفترة الهامة من حياته الشعرية ان تعرف بفتاة تدعى « كاي » كانت له ، بعد المسيح وفلسطين ، الملهم الاكبر سنوات عدة . ليس لنا ، على هذا القرب ان نستقصي علاقات توفيق بعدد من النساء اللواتي كان لهن أثر في شعره ، ولو ان ذلك سيغدو مع الزمن ضروريا لاستيضاح الكثير من غوامض شخصيته وشعره . ولكن لا مفر من القول ان توفيق ، بعد « ثلاثون قصيدة » ، لم يجد في المرأة ذلك الالهام الرومانسي الذي يحلو للناس ان يتخيلوه . كانت المرأة مصدرا للكثير مما يقول ، ولكنه مصدر متفجر ، خطر ، جارح ، محطم .

كانت كاي تغويه وتعذبه معا ، وتتقن كلا الفنين وتتمتع بهما . ما رايته في لندن في اواخر الخمسينات ، الا وهو في تباريح غريبة من هذه الفتاة — وهي فنانة تقيم في لندن ، تتشبث به وتغار عليه ، وتعقد عليه لذة الحب بلذائذ من قسوتها السادية لا يستطيع منها فكاكا . تغار عليه حتى من اصدقائه ، فلا تريده ان يراهم ، ولا تريد هي أن تراهم . أسماء صحبه لديها تعاويذ شريرة. يأتيني منهكا ، شاحب الوجه ، محروم النوم ، مهووسا برعب هذا الحب اللذيذ المرير . ولا انكر انني ، في احدى الفترات ، جعلت اشك في وجود امراة كالتي يصف ، والتي لم أرها قط . ومرة اخرى قلت له ايامئذ انني جعلت اظن انه انما يروي لي عن مغامرة راعبة من خلق خياله . غير ان امره معها تعدى كل حد ، وكانت العقابيل واضحة . كان يحاول ان يخلص نفسه بكتابة الشعر ، وهو الذي يأتيه بالالم المحض ايضا . كان يداوي الالم بالالم . الى ان جاءني يوما في ربيع عام ١٩٦٠ واعترف ، وهو يخشى الاعتراف ، بأنه يفكر بالانتحار . افزعني تلك الليلة .كان في ذهول لم ار أحدا في مثله : يصحب ذهوله اصفرار في الوجه ، ورجفة في الشفتين الجافتين ، ورعشة في الرأس اذ ينتفض فجأة وهو يتكلم ، فأرى ان المسألة قد تجاوزت حدود العقل . وكان لي معه في تلك الليلة عراك : الحياة اهم من كل امرأة ، الشعر اهم من كل تجربة ، وتوفيق صايغ اهم من